انسيابي. ليس غريبًا أن تُلقب "زها حديد" بملكة المنحنيات. يجب أن تستمتع برؤيته من الخارج!"

أوليغ كولسانوف (19 مايو 2023م – موقع تورستر): "مبنى استثنائي للغاية، بهندسة معمارية فريدة. لا توجد به خطوط مستقيمة. تصميمه أقرب إلى الخيال الفضائي. مظهره جميل للغاية."

إيلينا بتروفا (23 ديسمبر 2021م – موقع "تورستر"): "إنه واحد من أكثر الإبداعات المعمارية غير العادية التي رأيتها في حياتي على الإطلاق. لا أجد ما يضاهي مركز "حيدر علييف" الثقافي من حيث تصميمه المستقبلي الفريد، وأناقة تجسيد فكرة جريئة من المهندسة الموهوبة "زها حديد" (تحدثت عن وفاتها بحزن صادق كما لو كانت فقدت قريبًا لها). المبنى مصمم بطريقة فريدة لا تحتوي على أي خطوط مستقيمة أو زوايا قائمة؛ مِمَّا يجعله يبدو كموجة بيضاء ضخمة ترمز إلى الأبدية. إن نباتات الزينة، والحلزونات الملونة، والأرانب، والبحيرة الخلابة، والمساحات الخضراء المورقة والمُعتنى بها – كل هذا يجذب العين، ويسعد الروح بتناغمه وجماله. يقال إن تصميم المبنى من الأعلى يُشبه توقيع الرئيس "حيدر علييف" نفسه. إن هذا النوع من الحكايات الخيالية يتناسب تمامًا مع الطبيعة الفريدة والإبداعية لهذا الصرح الفني الرائع."

فاليري إل (سبتمبر 2022م مع أصدقائها-تربادفسور): "ربما يكون هذا هو العمل المعماري الأكثر إثارة للإعجاب في المدينة التي تعج بالمباني المثيرة للاهتمام! من الممتع للغاية أن تتأمل المبنى من جميع الزوايا، ثم تستمتع بمشاهدة تصميماته الداخلية التي لا تُنسى. تستحق الملاحظة مجموعة صغيرة من المنحوتات الحديثة المنتشرة في جميع أنحاء المبنى وحوله، إلى جانب مجموعة كبيرة من الدمى الفنية، ومجموعة رائعة من الآلات الموسيقية. بالإضافة إلى ذلك، هناك مساحة شاسعة مخصصة لعرض الأعمال الفنية والمعارض!"

محمد أ (دبي، الإمارات العربية المتحدة، فبراير 2023 م- تربادفسور): "هذا المركز يحتوي على كل المعلومات التي تحتاجها حول "أذربيجان". أوصي ببدء أي رحلة هنا لتتعرف على أبرز معالم الدولة وثقافتها ونشأتها. ويتضمن المركز أيضًا معرضًا للسيارات. أنصح بشدة بزيارته أولاً".

انطلاق لرسائل اجتماعية مهمة؛ إذ تُبرز المؤتمرات والمنتديات المتعددة التي تُقام بها بحضور قادة من بلدان شتى، بالإضافة إلى النقاشات الموضوعية، الدور المحوري للكلمة في تقدم الحضارات. ومن هذا المنطلق، تُعد محاضرات مدرب اليوغا الهندي "سادجورو" الشهير التي نظمها في هذا المركز مثالًا بارزًا على هذا.

وبمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الزعيم القومي الأذربيجاني "حيدر علييف"، عزّز المركز نشاطاته بشكل كبير. فقد تضمنت الأنشطة الاحتفالية مجموعة عامة واسعة من المقتنيات الشخصية والهدايا الخاصة به؛ مِمَّا يُبرز شخصية هذا القائد الذي اكتسب احترامًا عالميًّا.

لا تقتصر فعاليات مركز "حيدر علييف" على ما سبق ذكره فحسب، بل تسهم أيضًا عبر الفنون في تعزيز أفكار التعددية الثقافية، التي كانت ولا تزال عنصرًا لا يتجزأ من نمط حياة الشعب الأذربيجاني. وعلاوة على ذلك، أولى "حيدر علييف" بنفسه أهمية كبيرة للحفاظ على تقاليد التعددية الثقافية وتنميتها، وهو ما يتجلى بوضوح في أساس مشروع "زها حديد".

يبدو تصميم مركز "حيدر علييف"، بمنحنياته السلسة الموجهة نحو المستقبل، التي تجمع بين حلول مبدعة وخيالات جريئة، مزيجًا غير مألوف إلى حد ما، ولكنه يحمل في طياته انسجامًا فريدًا. ويعكس هذا المزج الفريد حوار الثقافات، وهو الدور الذي تبناه المركز منذ انطلاق أنشطته. وقد شُبه هذا الإنجاز المعماري الحديث تارة بموجة بحرية عملاقة، وتارة بكثيب رملي، وتارة أخرى بسفينة فضائية من المستقبل البعيد.

"كان هذا المشروع بالنسبة لي فرصة للتحرر والانطلاق بأجنحتي"، هكذا وصفت "زها حديد" عن تجربتها في تصميم مركز "حيدر علييف" في "باكو". وقد أصبح هذا الإبداع المعماري بمثابة إعلان جاد للعالم عن استقلالية "أذربيجان" وطموحاتها.

إذا ألقينا نظرة على التعليقات المنتشرة على مختلف منصات الإنترنت، فسنجد أنَّ جميعها تقريبًا تُشيد بتميز المركز. وفيما يأتي نعرض بعضًا منها:

ماريا أولخوفيكوفا (2 مايو 2023م – موقع تورستر): "المبنى جميل للغاية من الخارج، وواسع جدًّا من الداخل (يشبه فضاءً مليئًا بالهواء). إنه بالفعل جميل ومثير للإعجاب. خطوط ناعمة، طوابق متدفقة، ولا يحتوي على أية زوايا حادة – كل شيء

المصور الألماني "ثيو ألوفس" والنحات المكسيكي "جورج مارين".

تم تصميم الفضاء الداخلي للمركز بحيث يعكس بدقة متناهية إبداعات الفنانين إلى الجمهور؛ إذ يتم دمج كل معرض بسلاسة مع الطابع المعماري الداخلي للمبنى؛ مِمَّا يجعله مناسبًا للموقع الذي يقع فيه. وعند انتقال الزوار بين الطوابق المختلفة، يجدون أنفسهم وكأنهم يغوصون في تجربة بصرية مذهلة، حيث يقدم كل طابق أعمالًا فنية متجددة لفنانين آخرين. فعلى سبيل المثال، يتشابك تراث الرسام الاسباني "سلفادور دالي" بسلاسة مع معرض الفنان التجريدي التركي "ديفريم إربيل". وتُظهر المعارض الخاصة بالفن الحديث التي تقام في المركز الروابط بين الثقافات المختلفة في إطار زمني ومكاني مشترك. ومن بين هذه المعارض المعرض المشترك بين "أذربيجان" و"لاتفيا" بعنوان "بين السماء والأرض"، الذي تضمن الأعمال الفنية لكل من الفنان "رضا ديغاتي"، والفنان "إيفا كرومين". كما تم عرض مقتنيات فريدة من مجموعات المتحف الوطني الجورجي، بما في ذلك مقتنيات من قصر "سردار" في "يريفان"، ضمن معرض "روائع التاريخ". كما تضمنت المعروضات السابقة رسوم الجرافيتي للفنانة البرازيلية "نينا باندولفو"، وأعمال الفنان البحريني "الشيخ راشد الخليفة"، وروائع الأيقونات والنحت الديني من معرض "تريتياكوف" الحكومي الروسي ومتحف الأيقونة الروسية.

الحفلات موسيقية، والعروض المسرحية، والمؤتمرات، والندوات: يمكن القول إن التكوين متعدد الطبقات لمركز "حيدر علييف" يجسد بصريًّا التنوع الكبير للفعاليات التي تُقام فيه. على سبيل المثال، تُنظم في هذا المركز حفلات موسيقية بشكل متكرر. تتميز قاعة "المدرج"، التي تم تغليفها بألواح خشبية مصنوعة من البلوط الكندي، بخصائص صوتية استثنائية. تحت سقف هذه القاعة، قدم عروضهم ممثلون من المسرح الموسيقي "هيليكون-أوبرا" في "موسكو"، والأوركسترا "شتراوس" في "فيينا"، والأوركسترا الفيلهارمونية الصغيرة من "فيينا"، بالإضافة إلى مجموعة الغناء الجماعي "تيك 6"، التي حصلت على جائزة "غرامي" ثماني مرات، ونجوم الأوبرا العالميين وفنانين مشهورين. كما تم بالمركز تقديم مشروع موسيقي بعنوان "صوت قراباغ"؛ مِمَّا أكد بوضوح أنَّ الموسيقى تتجاوز الحدود والحواجز اللغوية.

تُعد خشبة مسرح "المدرج" في مركز "حيدر علييف" نقطة

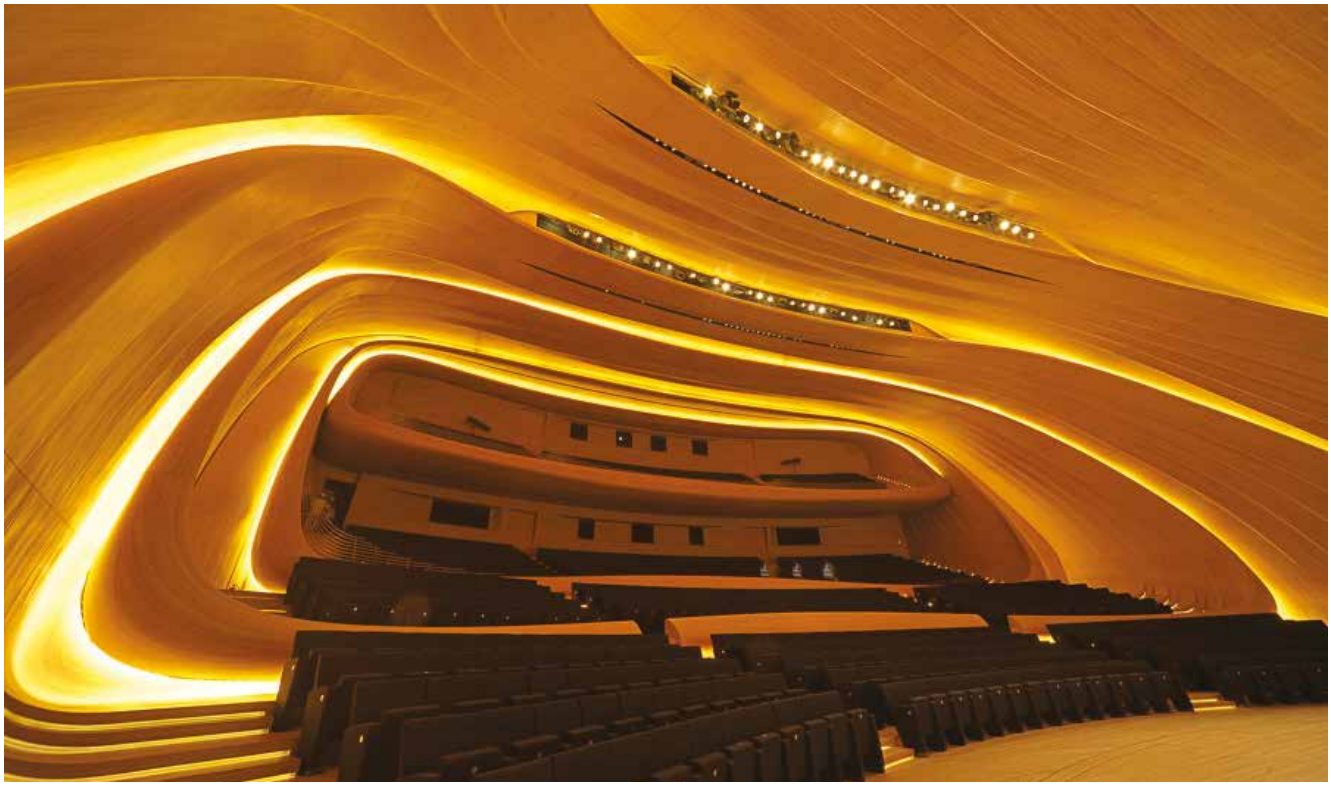

التقليدي والآلات الموسيقية التي يمكن الاستماع إلى ألحانها.

معرض "أذربيجان المصغرة": يقع في الطابق الثاني من المركز، ويضم مُجسمات مصغرة لـ 45 معلمًا تاريخيًّا ومعماريًّا من "أذربيجان". ويمكن للزوار مشاهدة مجسمات مصغرة لـ"برج العذراء"، وضريح "مؤمنة خاتون"، ومباني محطة قطار "باكو"، ودار الحفلات الموسيقية (الفيلهارمونية) وقصر "إسماعيليه"، بالإضافة إلى نماذج من العمارة السوفييتية؛ مثل: مبنى الحكومة، والمسرح الأخضر، وأيضًا العمارة الحديثة ممثلة في "كريستال هول" و"أبراج الشعلة" في "باكو"، والمبنى الجديد لصندوق البترول الأذربيجاني.

معرض السيارات الكلاسيكية: يقدم المعرض، من خلال تأثيرات ضوئية خلابة، مجموعة من روائع السيارات العالمية التي تم تصنيعها في دول مختلفة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم. وتشمل المعروضات سيارات من ألمانيا، والولايات المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا، وبريطانيا، ودول الاتحاد السوفييتي السابق. إلى جانب هذه السيارات، يتم عرض مضخات وقود أصلية، ومواد فوتوغرافية وفيديوهات، وكذلك صحف ومجلات متخصصة في هذا المجال.

المعارض الخاصة: منذ افتتاحه، استضاف مركز "حيدر علييف" الكثير من معارض أعمال مصورين ونحاتين وفنانين ومصممين عالميين. ومن بين هؤلاء: الفنان الأمريكي "آندي وارهول" المعروف بفن البوب آرت، حيث تم عرض أكثر من مئة عمل فني له، بما في ذلك أفلام قصيرة، في أول معرض يقام له في "أذربيجان". كما ضم المركز معرضًا للفنان الأذربيجاني البارز "طاهر صلاحوف"، أحد مؤسسي أسلوب "الواقعية القاسية"، حيث تم عرض أكثر من 100 عمل فني له، بما فيها لوحات على السجاد. كما استضاف المركز معرضًا ضخمًا لـ"زوراب تسيريتيلي"، إلى جانب أعمال أحد رواد فن التصوير الطبيعي

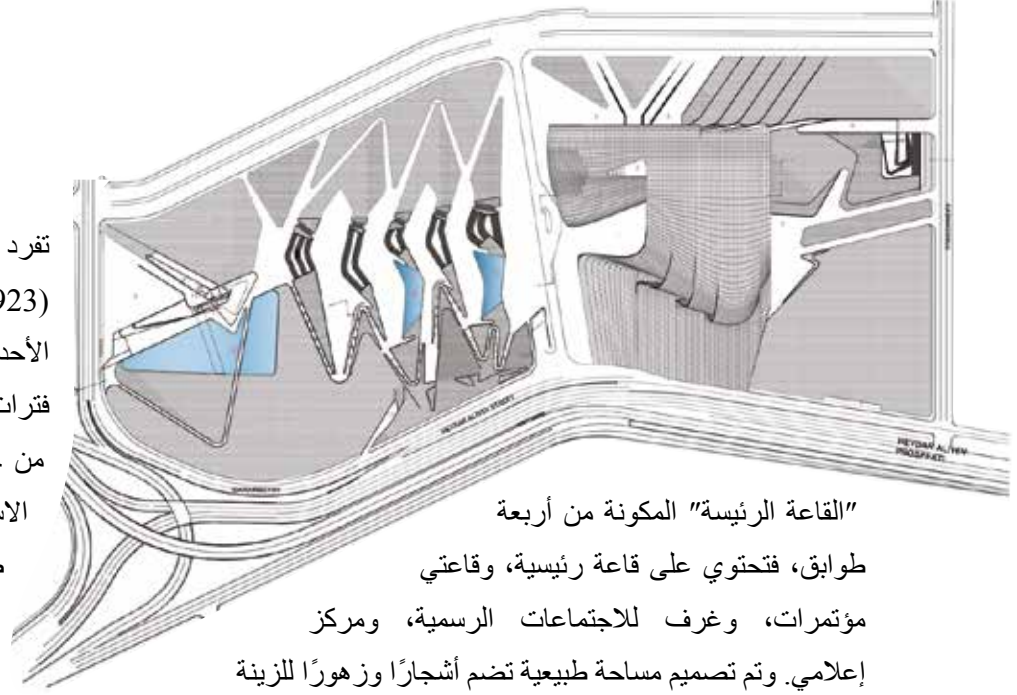

"القاعة الرئيسة" المكونة من أربعة طوابق، فتحتوي على قاعة رئيسية، وقاعتي مؤتمرات، وغرف للاجتماعات الرسمية، ومركز إعلامي. وتم تصميم مساحة طبيعية تضم أشجارًا وزهورًا للزينة داخل المبنى. كما يحتوي المركز على وحدات معلومات تفاعلية، تتيح للزوار الحصول على معلومات حول المركز والفعاليات المقامة فيه.

متحف "حيدر علييف": يحتوي الطابق الأول من المتحف على مجموعة من السيارات الحكومية التي استخدمها "حيدر علييف" أثناء خدمته كأمين أول للجنة المركزية في "أذربيجان" (1969م-1982م)، ثم كرئيس لأذربيجان المستقلة (1993م-2003م). وصُممت باقي المقتنيات المعروضة بطريقة تسلط الضوء على تاريخ البلاد، وتطور الدولة، والإنجازات الاقتصادية والثقافية والرياضية من خلال سيرة هذا الزعيم. وبجانب غرفة المكتب المعاد تصميمها والجوائز والهدايا، يمكن للزوار استكشاف أرشيف الصور، وزيارة قاعة تفاعلية تعرض عبر مجسم للكرة الأرضية لقاءات "علييف" مع رؤساء دول وشخصيات سياسية بارزة.

يعرض هذا المتحف -المكون من ثلاثة طوابق- مسيرة حياة "حيدر علييف" من خلال الصور والفيديوهات. ويتميز تصميم المبنى بالأصالة التي تتناغم مع تفرد المعروضات. والإضافة إلى سيرة "علييف" (1923م-2003م)، يتعرف الزوار على أهم الأحداث الاجتماعية والسياسية في "أذربيجان" عبر فترات مختلفة من التاريخ الحديث. وتُعرض جوانب من حياة "علييف" في الحقبة السوفييتية وسنوات الاستقلال بشكل افتراضي في أقسام "الحياة في صور"، و"الحياة الاجتماعية والسياسية في أذربيجان"، و"دولتنا، إرثنا، إنجازاتنا". كما تقدم المعلومات الصوتية باللغتين الأذربيجانية والإنجليزية. ويضم المتحف قاعة تفاعلية متعددة الوسائط تتيح للزوار استكشاف لقاءات "علييف" مع قادة الدول. وعند لمس أي دولة على الكرة الأرضية الموجودة، تُعرض صور "علييف" مع رؤساء الدول، والهدايا التي قدمت له، والتي هي المعروضة أيضًا في المتحف. وتشمل المقتنيات المعروضة أيضًا ملابس "علييف" العسكرية والمدنية، ومكتبه، الأوسمة والميداليات التي حصل عليها.

معرض "لآلئ أذربيجان" في مجرى التاريخ": يقع في الطابق الأول من المركز، ويتيح المعرض للزوار التعرف على مقتنيات نادرة، تروي قصة تاريخ "أذربيجان" وتراثها الثقافي. وتشمل المعروضات رسومًا صخرية من "جوبوستان"، وعملات قديمة، ومجوهرات، وقطع فخارية ونحاسية من العصور الوسطى، ونسخًا قديمة من القرآن والإنجيل والتوراة. بالإضافة إلى السجاد الأذربيجاني

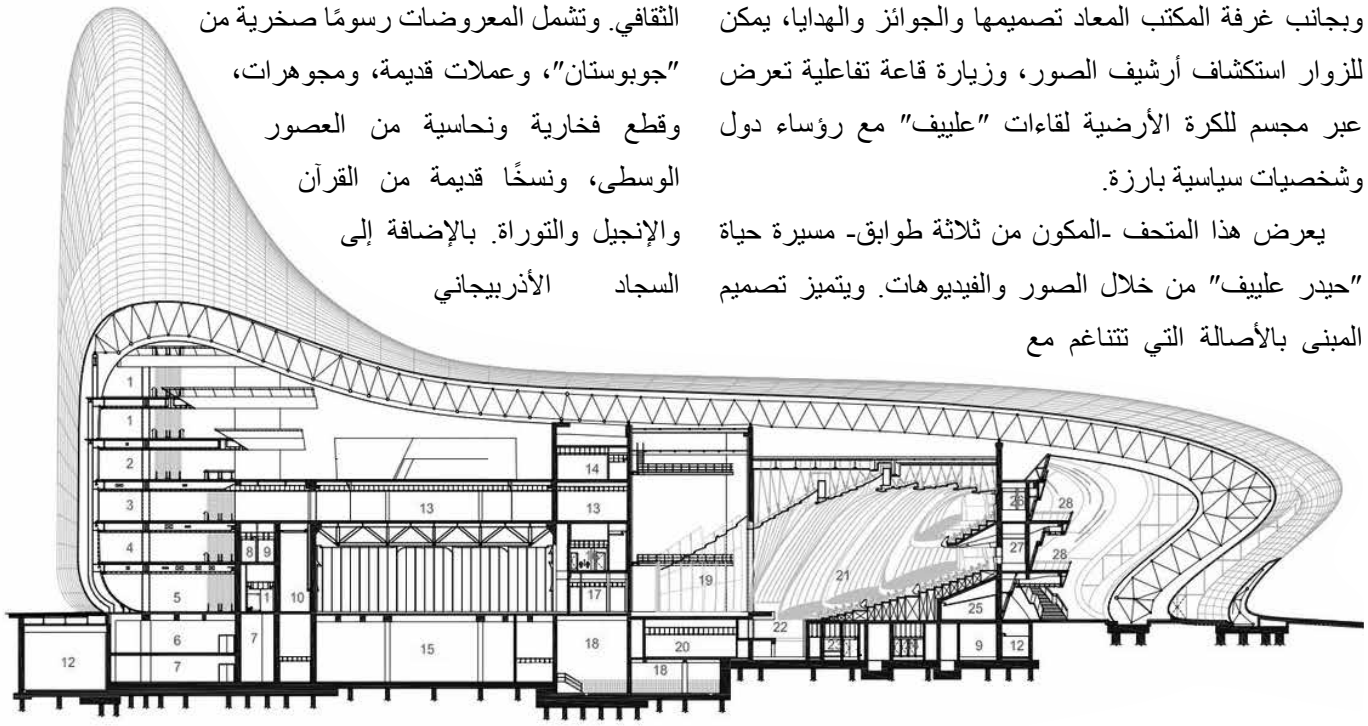

وشبه المنحرف، مساحة 4 هكتارات. وتم تشكيل الألواح باستخدام تقنية الفراغ. وتم اختيار بوليسترات مدعمة بالألياف الزجاجية كمواد للواجهة؛ لضمان مرونة هيكلية، وتلبية المتطلبات الوظيفية المختلفة. ويرمز اللون الأبيض للألواح إلى المستقبل المشرق، كما أنَّه يسمح لأشعة الشمس بإبراز السمات الفريدة للمبنى؛ مِمَّا يغير مظهره الخارجي تبعًا لتغير الإضاءة الطبيعية طوال اليوم. ومن خلال الإضاءة الداخلية، يتم إبراز الجانب الليلي للمبنى؛ إذ تكشف الأضواء الداخلية الموجهة عن تفاصيل التصميم، وتدعم الانسجام بين الداخل والخارج.

تضفي الطبقة الخارجية على المبنى مظهرًا يوحي بالتماسك والصلابة؛ إذ يبدو ككتلة متصلة تمتد لتغطي الساحة المحيطة وكأنها تتدفق على سطح الأرض. ويُمكن الوصول إلى مدخل المركز عن طريق منحدر واسع، مزود بدرجات، يوفر إطلالة بانورامية على المدينة، ويُحيط به ساحات واسعة مزينة بنوافير على هيئة شلالات تنحدر على جدران عمودية لتصب في أحواض مياه صناعية واسعة.

يعلو مركز "حيدر علييف" فوق المدينة مثل قمة جبلية بيضاء، وقد تجسد بخيال المعمارية بأشكال منحنية سلسة، وكأن قوى الرياح والماء قد أسهمت في نحته. تبلغ أعلى نقطة في المبنى 74.1 مترًا، وتصل مساحته الإجمالية إلى 101,801 متر مربع؛ مِمَّا يجعله من أكبر المساحات التي تحتضن معارض متنوعة. في الجزء العلوي من هذا الصرح، تُقام المعارض الدائمة والمؤقتة التي تعبر بوضوح عن الثقافة الأذربيجانية المميزة. وتحت تأثير الضوء الهادي المتدفق في المساحات الداخلية، تبدو المعروضات وكأنها تدعو الزوار إلى الاستمتاع بتجربة تفاعلية هادئة. وتحتوي المعارض على أزياء تقليدية، وحرف يدوية، وأدوات مائدة، وآلات موسيقية تصاحبها نماذج من أصواتها.

يتألف المبنى الرئيسي للمركز من ثلاثة أقسام: متحف "حيدر علييف"، و"قاعات العرض"، و"القاعة الرئيسة". ويضم قسم قاعات العرض، المكون من تسعة طوابق، ومساحات مخصصة للمعارض والمكاتب الإدارية، بالإضافة إلى مطعم ومقهى. أمَّا

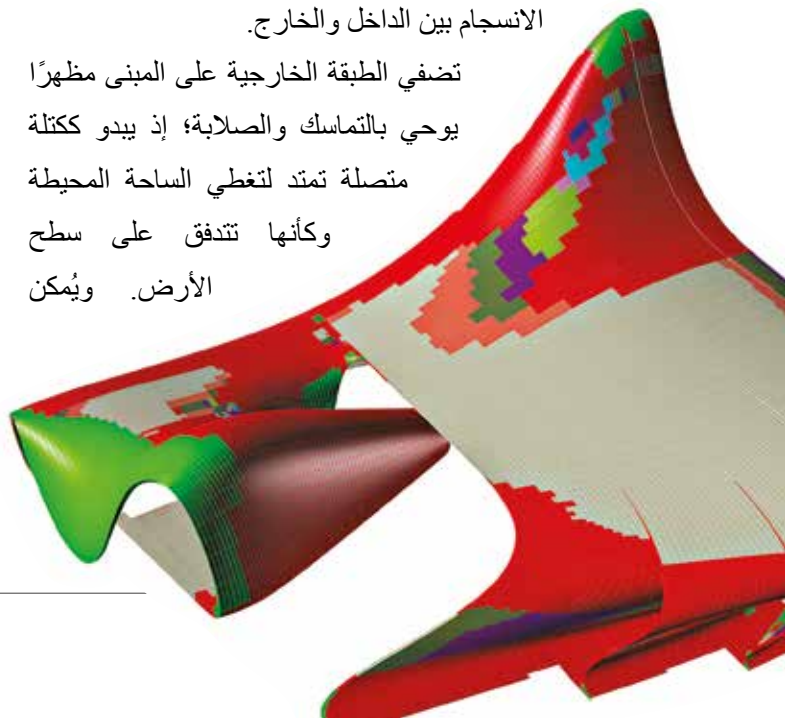

والرمزية بتناغم مذهل. كما تمكنت "حديد" بواسطة استغلال التصميم البارامتري والمواد الحديثة من إنشاء بناء هيكل يدمج العمارة مع المناظر الطبيعية للمدينة، ويمحو الحدود بين واجهة المبنى والساحة العامة، وكذلك بين العناصر الصناعية والطبيعة، وبين الداخل والخارج.

خلال مرحلة البناء، حظي مركز "حيدر علييف" باهتمام وسائل الإعلام العالمية. وقد تم تسليط الضوء على عملية البناء في إحدى حلقات برنامج "Build it Bigger" على قناتي "Dis-covery" و"Science Channel"، التي تركز على أبرز المشاريع الهندسية والتحف المعمارية في العصر الحديث. ووصف مقدم البرنامج "داني فورستر" المركز بقوله: "إنَّه ليس مجرد مركز ثقافي، بل هو وسيلة لتأكيد مكانة "أذربيجان" على الساحة العالمية".

ويعكس الشكل المعماري للمبنى، وكذلك المنطقة الخضراء المحيطة التي تمتد على مساحة 13.58 هكتارًا، رؤية مستقبلية تتجلى في التدرجات الخضراء الشاسعة والأحواض المائية الهندسية والممرات الواسعة المنيرة. ومن الطبيعي أن يتلقى هذا المشروع في خريف عام 2013م تقييمات إيجابية من الخبراء خلال مهرجان العمارة العالمي في "سنغافورة". وحافظت "زها حديد" -أول امرأة تفوز بجائزة "بريتزكر" المرموقة- على وفائها لروح ما بعد الحداثة؛ إذ يعكس التصميم الساطع والأبيض للمركز انطباعًا لا يزول.

يعتمد التصميم المعماري لمركز "حيدر علييف" على دمج هيكل خرساني مع عدد كبير من الإطارات الفراغية. ومن أجل إنشاء مساحات شاسعة، تمنح الزوار إحساسًا بسلاسة التصميم الداخلي؛ تم إخفاء العناصر الرأسية للهيكل باستخدام ألواح مغطاة، وجدران معلقة. كان تصميم الواجهة المعمارية للمبنى واحدًا من أبرز وأصعب التحديات التي واجهت المعمارية "زها حديد". ووفقًا لرأيها، الأشكال تشبه الأمواج المتلاطمة مع بعضها البعض. يتكون السقف من 12,027 لوحة بأشكال هندسية مختلفة. ويبلغ طول الإطارات الحديدية التي تشكل الهيكل العام للمبنى مسافة 90 كم. وتغطي الأشكال الهندسية؛ مثل: المثلثات، والمستطيلات،

حيدر علييف

كانت العمارة الإسلامية تتَّسم تاريخيًّا بانسيابية التصاميم، وتتدفق الهياكل الشبكية، وتتابع الأعمدة بلا انقطاع؛ مثل: الأشجار في الغابة؛ مِمَّا يشكل فضاءً هرميًا. وتمتد الأنماط الخطية والزخرفية من السجاد إلى الجدران، ومن الجدران إلى الأسقف، ثم إلى القباب؛ مِمَّا يخلق تواصلًا سلسًا يدمج بين العناصر المعمارية والبيئة المحيطة. كنا نرغب في إعطاء هذه الفكرة التاريخية للعمارة دفعة جديدة وبناء هوية جديدة ترتكز على التقاليد. هكذا عبَّرت "زها حديد" عن المحتوى الأيديولوجي لمشروعها المفضل – مركز "حيدر علييف" في "باكو". وقد اعتبرت المعمارية "زها حديد" هذا المركز واحدًا من أبرز مشاريع شركتها "زها حديد أرك تكتس". وحصل المشروع في عام 2014م على جائزة "تصميم العام" من متحف التصميم في لندن، وقد أثار الإعجاب بانسيابية أشكاله التي انسجمت بتناغم مع المناظر الطبيعية الواسعة؛ مِمَّا جعله استمرارًا طبيعيًّا لتصميم المركز المعماري.

أُنْشِئ مركز "حيدر علييف" بموجب قرار من الرئيس الأذربيجاني "إلهام علييف"؛ بهدف تعزيز فلسفة بناء الدولة، ونشر الفكر القومي الأذربيجاني، والحفاظ على تراث "حيدر علييف"، إضافة إلى التعريف بتاريخ "أذربيجان" وثقافتها، وتنظيم فعاليات في هذا المجال محليًّا ودوليًّا. تم وضع حجر الأساس للمركز في 10 سبتمبر 2007م، وافتُتح رسميًّا في 10 مايو 2012م، في الذكرى التاسعة والثمانين لميلاد "حيدر علييف"، تولى قيادة "أذربيجان" لفترة طويلة في ظل الحكم السوفييتي، ثم في فترة الاستقلال. ويُعد المبنى من أبرز التحف المعمارية العالمية بفضل تصميمه المعماري الفريد والمبتكر.

تم تخصيص مساحة تبلغ 16 هكتارًا في إحدى ضواحي "باكو" لبناء مركز "حيدر علييف"، في الموقع الذي كان يحتله سابقًا مصنع "ستارخان" للمعدات. ومن خلال استخدام التدرجات في الارتفاعات والتراسات الطبيعية، نجحت "زها حديد" في ابتكار روابط مكانية معقدة. فعند التأمل في تصميم المركز، يمكن ملاحظة أنَّ المصممة تخلت تمامًا عن استخدام الخطوط المستقيمة؛ مِمَّا يعكس نظرية "أنطونيو غاودي"، الذي كان يؤكد أنَّ الطبيعة لا تحتوي على خطوط مستقيمة. وهنا، تمتزج العناصر المعمارية

IRS حيدر عليف

د. أمينة مليكوفا
حاصلة على الدكتوراه في تاريخ الفنون

مركز
"حيدر عليف"
تحفة معماريَّة فريدة